الفصل الرابع
أساطين النهضة الحديثة
في مصر والشام والعراق والمغرب

ممن نبغ من المصريين في هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه وروحه، **الشيخ عبد الرحمن الجبرتي** صاحب التاريخ المعروف باسمه، درس في الأزهر دراسة كاملة، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبوه في الديوان. ثم انقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ثم توفى سنة 1825م.

ثم الشيخ محمد المهدي شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان الخصوصي لنابليون، ولد قبطياً ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه. ألف كتاب تحفة المستيقظ الآنس، في نزهة المستنيم الناعس، وهو أشبه ألف ليلة وليلة، وكانت وفاته سنة 1815م.

ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم ناثر، ولد بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأحذ ذلك من فهمه وزاد في علمه. ثم تولى التدريس في الأزهر ورقى إلى أن صار شيخاً له، وتوفى سنة 1832م.

ثم السيد علي الدرويش شاعر الأمير عباس الأول، نشأ في القاهرة وعاش موفور الكرامة بشعره. وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه: الإشعار بحميد الأشعار. وكانت سنة 1853م.

ثم الشيخ شهاب الدين صاحب سفينة الملك، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبغ في الأدب وألم بالحساب والهندسة والموسيقى، ثم اشتغل بالتحرير في الوقائع والتصحيح في مطبعة بولاق حتى توفى سنة 1857م.

ثم رفاعة الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية، ومدير المدرسة التجهيزية، ومنشئ الوقائع المصرية، ولد بطهطا وتعلم في الأزهر، وأرسله

محمد علي فيمن أرسل إلى فرنسا فأتم دراسته ثم عاد فعكف على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حمامه سنة 1872م.

ثم الشاعر محمود صفوت الساعاتي نشأ في القاهرة وتوفى سنة 1880م.

ثم الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري الشاعر المطبوع واللغوي الحجة والمؤلف النابه، ولد في أبيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل بإسماعيل فجعله إمامه ومفتيه. ثم أتاه اليقين سنة 1888م.

ثم العلامة الشيخ حسين المرصفي شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية في العلوم العربية. تخرج في الأزهر وعلم به. ورزق ما يرزقه مكفوفو البصر من لطف الحس وذكاء الفؤاد. توفى سنة 1886.

ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكري ناظر المعارف في عهد إسماعيل، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية، توفي سنة 1889م.

ثم المصلح الكبير علي مبارك باشا منظم المدراس المصرية ومنشئ المكتبة الخديوية (دار الكتب)، ومؤلف الخطط التوفيقية، وقصة علم الدين. شارك في علوم كثيرة، وتقلب في مناصب خطيرة، منذ ولاية محمد علي إلى عهد توفيق. ثم توفى سنة 1893م.

ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية، وله ترجمة خاصة.

ثم المترجم البارع محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين في كتابة العيون اليواقظ، ومترجم ترتوف وبول وفرجيني إلى العامية، ومؤلف السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية، توفى سنة 1898م.

ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية، نبغت في الشعر العربي والتركي وخلفت في كل منهما ديواناً. ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال في الأدب. ولدت بمصر سنة 1840م، وتوفيت بها سنة 1902.

ثم الاجتماعي الألمعي والكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعي، ومؤلف كتابي: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، وأثرهما في النهضة النسائية معروف. توفى سنة 1108.

ثم الخطيب المِصْدَع، والسياسي المجرب، والوطني الصادق، والصحافي البارع، مصطفى باشا كامل، وله ترجمة خاصة.

ثم الفقيه المحقق، والمترجم البارع، فتحي باشا زغلول، شارح القانون المدني، ومؤلف كتاب المحاماة، ومترجم كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية، توفى سنة 1914م.

ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى المنفلوطي، وله ترجمة خاصة.

ثم العبقري الفذ والمحامي الدرة والأصولي البارع، والخطيب المصقع، والكاتب النابغ والسياسي المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة.

ثم اللغوي المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية. ومعجم اللغة العامية، والمؤلفات القيمة، والمقالات الممتعة في اللغة والتاريخ. توفى سنة 1930م.

ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك المويلحي صاحب حديث عيسى ابن هشام، توفى سنة 1930م. وله ترجمة خاصة.

ثم أمير الشعراء وخليفة المتنبي أحمد بك شوقي وله ترجمة خاصة.

ثم شاعر النيل، وأديب الشعب، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة.

ثم الأديب المطلع والمثقف النابغ أحمد زكي باشا صاحب الخزانة الزكية، ومحي المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية، توفى سنة 1924.

وممن نبغ من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامة الحمصي مادح الأمير بشير الشهابي ومعلم ولده وموضع ثقته. جمع شعره في ثلاثة دواوين ولم يطبع إلا واحد منها. توفى سنة 1851.

ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مراش الحلبي أقدم دعاة الحديث، وأول رسل التجديد، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفى ضريراً سنة 1783م.

ثم الصحفي المنشئ أديب إسحاق، رئيس قلم الإنشاء في نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقي

جمال الدين، وكان له أثر ظاهر في النهضة الأدبية الحديثة، توفى سنة 1885م.

ثم المصلح الاجتماعي والكاتب السياسي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد) (وأم القرى)، جاب أكثر الممالك الإسلامية، ثم ألقى عصاه بمصر سنة 1902م.

ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام في دار السلام، ولد ببيروت وتوفي فيها سنة 1907م.

ثم الأديب الكبير، والصحفي البارع، والمترجم القدير، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل ووضع من الروايات التمثيلية، ثم توفى في ريعان شبابه سنة 1899م.

ثم العلامة المؤرخ الحجة واللغوي الثبت الشيخ طاهر الجزائري عالم دمشق وأديبها توفى سنة 1625م.

ثم المؤرخ النابه، والصحفي النابغ، والقصصي المبدع، جرجي بك زيدان، منشئ الهلال، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة في التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصي التاريخي في الشرق. توفي سنة 1914م.

ثم الفيلسوف المحقق، والصحفي المجدد، الدكتور يعقوب صروف منشئ المقتطف وأحد رسل العلم الحديث، توفى سنة 1917م.

وممن نبغ في العراق آل الآلوسي، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين الآلوسي صاحب التفسير الشهير الموسوم بروح المعاني في تسعة مجلدات. توفى ببغداد سنة 1854م.

ثم حفيده السيد محمود شكري الآلوسي أديب العراق ومؤلف كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب في ثلاثة مجلدات، توفى سنة 1923م.

ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة 1873م.

ثم الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة 1937م، وله ترجمة خاصة.

ثم الشاعر الاجتماعي معروف الرصافي المتوفى سنة 1945م وله ترجمة خاصة.

ثم العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرملي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة 1947م.

وممن نبغ في المغرب الكاتب السياسي المصلح محمد بيرم مؤلف الرحلة الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار، في خمسة أجزاء. وفد إلى مصر فأنشأ بها جريدة " الأعلام " واتخذها مقامه حتى توفى سنة 1881.

ثم الوزير العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وهو من خير ما كتب في بابه. سمت به كفايته إلى أن تقلد الوزارة في تونس، والصدارة العظمى في الآستانة، وتوفى سنة 1890م.

ثم الفقيه السياسي المصلح السيد عبد الحميد باديس الجزائري المتوفى سنة 1940م.

ثم الشاعر الشاب الثائر الحر أبو القاسم الشابي التونسي المتوفى سنة 1634.

ثم بقيت طائفة من نابغي الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء، آثرنا أن نخصهم بشيء من التفصيل والتحليل.

الكُتَّاب

جمال الدين الأفغاني

حياته وأعماله

ولد السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية. ثم درج في بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة. ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشعرية والعقلية على منهاج محيط شامل. ثم حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والآردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث. ثم أخذ يطوف ما شاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب. ثم كان رضي الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبي الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات – كما قال - - - إلا سكينة القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل

ما يقول [1]. ومن امتزاج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وامتد أمامه الأفق، وانصراف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرق الإنساني كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد.

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة والقتل شهادة! [2].

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنه قصر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة. والواقع الذي لاشك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم.

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، ودار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق، فاستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغائهم الشديد إليه، قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل:

" وغزة الحق وسر العدل، لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند. ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع "!.

وفي الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عين عضواً في مجلس المعارف، فرأى في التعليم رأياً

---

(1) خاطرات جمال الدين س 21.

(2) خاطرات جمال الدين س 33.

وخطب في الصناعة خطبة، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة في نفسه، فافترى على الرجل الأباطيل، وبس حواليه التمائم، فلم يجد الأفغاني بداً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه. وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة فعشا على ضوئها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأه منارة لهذه الشعلة، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فسبعة الحرية تنظر في ظلامة الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة. وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها ن يساووا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب. وراع أولى الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب، وما سمعوا من لغط الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فاستدعاه الخديوي توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال: " إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى ". ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته، حتى انتهى الأمر – بعد جهاد ثماني سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديوي أن يخرجه من مصر فأخرجه.

وانتقلت الشعلة إلى باريس، وسطعت في (العروة الوثقى)، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة، فاستقدمه شاه العجم واستوزره، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه. واستزاره قيصر الروس واستخبره، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه. واستدعاه خاقان الترك واستشاره، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوي عبد الحميد ما بين عينه؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر

ليبلغ الاستبداد أجله المقدور فمرض بالسرطان في الآستانة وتوفى به اليوم التاسع من شهر مارس سنة 1867م.

نموذج من نثره

كتب إلى عبد الله باشا فكري يعتبر عليه وقد بلغه أن رجلا ذمه أمام الخديوي على مسمع منه، فسكت ولم يدافع عنه:

مولاي! إن نسبتك إلى هوادة في الحق وأنت – تقدست جبلتك – فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه، فقد يعت يقيني بالشك. وإن توهمت فيك حيدانا على الرشد، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك مازلت على السداد غير مفرط ولا مفرط فقد استبدلت علمي بالجهل. ولو قلت: إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر، ولو ألب الباطل الكوارث المردية، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبني من يسمع مقالتي، لأن العالم والجاهل والفظن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك، ونقاوة سريرتك، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت، والحق معك أينما كنت، لا تفارق المكارم ولو اضطررت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً، ولا تهن في قضاء حق، ولا تني عن شهادة صدق – ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري، وعرفانك بسريرتي وسري، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أني ما أضمرت للخديوي ولا للمصريين شراً، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً. وتركتني وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقاني وإغراء من أعدائي أحزاب (فلان)! ما هكذا الظن بك، ولا المعروف من رشدك وسدادك؛ ولا يطاوعني لساني – وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل، مقرا بشرف مقامك في الكاملات – أن أقول: عفا الله عما سلف، إلا أن تصدع فالحق، وتقيم الصدق، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة، وإدحاضاً للباطل، وإخزاء للشر وأهله. وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل. ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم، وداعياً لكم – والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك.

الأستاذ الإمام محمد عبده

(1266 – 1323 هـ (1905م))

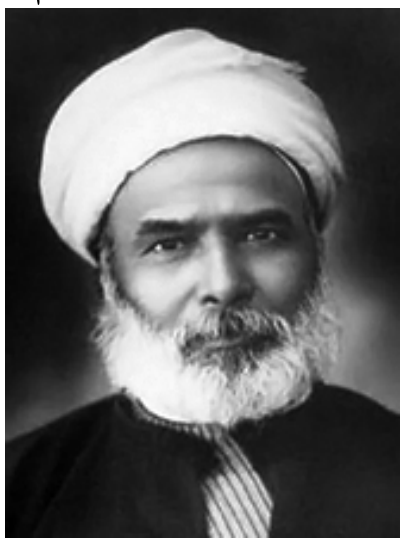

نشأته وحياته

ولد محمد عبده ابن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر ونشأ نشأة الأوساط من القرويين، فاستظهر القرآن في كتاب القرية، وأرسل في طلب العلم إلى الجامع الأحمدي فالأزهر الشريف، ولكنه مني في أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غيرهم تفهيم فسئما وفر. فلما ذاق حلاوة العلم صبر على مرارة التعليم، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن كثيراً من العلم. ولم يكن منهاج التعليم الأزهري في ذلك العهد كفيلا بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم، وثيق الحجة، ساحر البيان، عزيز العلم، كريم الخلق، ثابت البصيرة؛ ولكن السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذي جمله بهذه الصفات وكمله بتلك العلوم. ورد ذلك الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شرعته أذكياء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها. وكان الإمام آثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه، حتى قال فيه وهو مفارق مصر: " إني خلفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده ". فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف

الأستاذ النظر في العلوم واستقى الدين من مشارعه الصافية حتى أصبح إماماً في العلوم المقلية والنقلية واللسانية، فنال درجة العالمية سنة 1294 هـ. ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن، وأسندت إليه بعد ذلك رياسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية.

ثم أخذت مبادئ الأفغاني تزكو في القلوب وتهفو بالنفوس، حتى أفضت إلى الثورة العرابية، كان الأستاذ ممن شايع وبايع وأفتى بخلع الخديوي توفيق فحكم عليه بالنفي. فقصد سورية ولبث فيها ست سنين شرح في أثنائها كتابي نهج البلاغة ومقامات البديع. ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين، فأنشأ معا جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم الأدب والإصلاح، فاهتزت لها القلوب الطيبة في العالم الإسلامي، ولكنها لم تدم طويلا. واستهوى الأستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الأخذ منها بنصيب، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسي فتعلمه في بضعة أشهر. ثم شمله العفو الخديوي فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن، وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف، وعنى بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر. فكان درسه مجمعاً لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم. وتولى منصب الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان في الإسكندرية ودفن بالقاهرة.

صفاته وأخلاقه

كان الأستاذ ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد البصر، بليغ العبادة، فصيح اللسان، ذكي القلب، شديد العارضة، قوي الحافظة. وكان أشبه بابن خلدون في كبر نفسه، وصفاء عقله، وبعد نظره، وقوة جأشه، وكرم خلقه، وصراحة قوله، حتى في خصوصية زيه. وقد كابد مثله في رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة، شأن زعماء الإصلاح في كل أمه.

أثره في اللغة والأدب

كانت اللغة في عهده فريسة العجمة رهينة البلى فجاهد في إنقاذها وإحيائها حق جهاده: كان وهو يحرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في

الصحف ويكتب في الدواوين، ويدمج الفصول في نقد الأساليب وخطأ التراكيب، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها، ويكتب غيرها في موضعها تعليما للكتاب وتدريباً للناشئة. ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهريين، فقرأ كتابي عبد القاهرة في البلاغة بأسلوب يملك الأسماع والقلوب، وفسر كتاب الله بلسان رسوله. فكان في درسه خطيباً جزل المنطق قوى العارضة لا تدركه حبسه ولا يرهقه حصر. فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه. وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية، وسن في الأزهر تدريس الأدب فاعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي، واعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي.

أثره في العلم والدين

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فأطلع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل، وجدد رسوم الحق. ورأى العلم قد أخذ ينغض إلى الدين رأسه فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الإفهام، وحسر عنها ظلال الإبهام. وسمع ألسنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة. وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورده على هانوتو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت على تلك الشبه المدفوعة.

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفيهم الله من خلقه لنصرة حقه، فيجددن حبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد.

أسلوبه

للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض، تقرأه في الردود والمقالات: وقد ينحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة؛ ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه، فتتساوق أغراضه، وتتراصف فقره. فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب. أما

الشعر فما علمناه يقرضه. ولكن الناس رووا له أبياتاً قالها في سياق الموت وهي:

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
فيا رب إن قدرت رجعي قريبة إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وأرزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قائم

نموذج من نثره

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هنأه فيه بمنصب الإفتاء، وقد شكا فيه الإمام ما كابده من عنت الشيوخ في سبيل الإصلاح:

أنصفني قومك إذ سروا بنيلي الإفتاء، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله، وأضراهم بالدفاع عن حماه، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أمله، أو يبلغ الكتاب أجله. على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد، ولا يتقاذف اللدد. وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحلت إليه عزيمتي، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي، خصوصاً إن كفى فيه القتال، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال.

أما قومي فأبعدهم عني أشدهم قرباً مني. وما أبعد الأنصاف منهم! يظنون بي الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعاً منهم في الأحكام، وذهاباً مع الأوهام، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلوك الملام. أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون. شأنهم الصياح والعويل، والصخب والتهويل، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثله:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

وأقول ولا في الخير.

وإنما مثلي فيهم مثل أخ جهله إخوانه، أو أب عقته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عمدهم عليه. يهمدون منافعهم بإيذائه، ولو شاءوا لاستبقوا باستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب. على أني أحمد الله على الصبر، وسعة الصدر، إذا ضاق الأمر، وقوة العزم، وثبات الحلم، وإن كنت في خوف من حلول الأجل، قبل بلوغ الأمل، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً. أفزع لذكرى ذلك وأجزع، ويكاد قلبي يتقطع. ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...

وليتني كنت أشكوا إلى الله جهل العالمين وحمق المعلمين، في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها، وإزالة أيامها. تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً، ولكن كان فهم القوم حديدا لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صون الداعي أجابوه. كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من شدتهم. ويفل من شرتهم، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة. وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلا عرفوا الحق فأنكروه، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه. ولو سمعوا لفهموا، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع ألفهم كاليقين مع العلم، كلاهما قليل في بني آدم. أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم، وضعف العقل، واختلال نظام الإدراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة. وغاية ما يطلبون أن يحملوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تقضي حاجاتهم إذا سألوا، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا. وإن استعداد السامع للفهم يستدرك المقال، ويسدد الفكر للنضال في الجدال، أما عيشك فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام، ويطمس عين الفكر ويزهق روح العقل.

الشيخ علي يوسف

(1280 – 1331 هـ (1913م))

نشأته وحياته

ولد هذا السياسي النابه والصحفي النابغ في بلدة بلصفورة من أعمال مديرية جرجا من أسرة زكية المغرس رقيقة الحال، ولم يكن يحول على مولده الحول حتى فجعه الموت في أبيه، فارتحلت به أمه إلى أخواله في بني عدي من أعمال منفلوط حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئاً من مبادئ العلوم. وفي عام 1299هـ بعثوا به إلى الأزهر، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين ألم فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادئ الفلسفة، إلا أنه أحس في نفسه السمو والطموح، ورأى في الأزهر الجمود والخمود، فصدف عن حياة الأزهريين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهرهم ويسامرهم ويقول الشعر فيهم، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ علي وأعانه على تحريرها فكسبه ذلك ملكة الذوق الكتابي، وأسرار الفن الصحافي، فأخرج صحيفة سماها (الآداب) ظلت تصدر حتى 1307 هـ. ويومئذ أراد الله لهذه النفس الغلابة والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز

الحدود وتتعجل القدر، فصحت عزيمته الشيخ على أن يصدر هو والشيخ أحمد ماضي أحد رفقائه في الأزهر جريدة يومية سياسية دعواها " المؤيد ".

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في ربيع الآخر سنة 1307 هـ أو في أول ديسمبر سنة 1889م ولا عدة لها من مال، ولا ناصر لها من حكومة، ولا عون لها من حزب، ولا مشجع لها من جمهور فلقي الرجل في سبيلها برحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسعفه الله حينئذ بصحبة المحامي المدرة سعد أفندي زغلول. والكاتب الألمعي إبراهيم اللقاني وأضرابهما، فأمدوه بالمال والكتابة؛ ولكن الخلاف دب دبيبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصاً للشيخ علي إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً. فكاد يصبح الأمر فوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثانية في أحلك ساعات اليأس، فألقت إليه بصرة فيها المال كله. وسار المؤيد بعد ذلك في طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحدوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة، كسعد بك زغلول. والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، والسيد توفيق البكري، وفتحي بك زغلول، وإبراهيم بك المويلحي، وقاسم بك أمين، وإسماعيل باشا أباظة، ومصطفى لطفي المنفلوطي. فانتشر في العالم الإسلام انتشاراً لم تعرفه صحيفة قبله. وبلغ مت يطبع منه في اليوم، وعهده عهد أمية وجهالة، ثمانية آلاف نسخة، وأبلى في الدفاع عن الإسلام والذياد عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخديوي والأمة، فجملوا أسمه بالألقاب، وزينوا صدره بالأوسمة، وعطروا ذكره بالثناء. ولكن تجار الفساد أرهجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتعصب، واستعدوا عليه القناصل، فكان يتغلب على هذه العراقيل والأباطيل بصدق عزيمته وقوة حزمه.

ثم أصهر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة، ولكنه انتهى على ما عوده الله بالفلج والظفر فاسترد الزوجة، واغتصب السجادة الوفائية.

وعرف الشيخ علي بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من الخديوي عباس محل الناصح الأمين. وآل أمر صحيفته أن أصبحت من القصر سنانه المسلول ولسانه الناطق. وعاش هذا الرجل العصامي النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه ولد مخالفيه موفور الكرامة مرفوع المكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت 25 من أكتوبر سنة 1912م.

أخلاقه وفضله

كان الشيخ على حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه. كان دمث الطبع، متواضع النفس، رحب الصدر، جم المروءة، شديد الوفاء، مرهف الذهن، سريع الفطنة، شديد الاتكاء على نفسه؛ وكان بعيد الحور، فرماه خصومه، بالمكر والدس، واسع الأناة في السياسة فرموه بالغلول والخيانة. وكان سباقاً إلى الفضل دعاء إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وجعل التعليم في المدارس باللغة العربية، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله: " إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً إلى العلم ".

أسلوبه وعلمه

لم يجر الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية، فلم يتعمق في علم، ولم يتبسط في أدب، ولم يبرز في فن من فنون الحياة، ولا في لغة من لغات الناس، ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً! كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة، ولا تموهه صبغة، ولا يجمله وشى، وإنما يسحرك بلطف مدخله، وحسن ترسله، وسداد بحثه، ووثيق حجته، وقوة أسره، وكان من الكتاب الجدليين (Polemiete) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة العارضة وصدق النظر، ولكم وقف من الكتاب موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق وقد عالج الشعر في صدر شبابه فلم تسترض له قوافيه، ولم يعد شأو الأزهريين فيه. وقد جمع ما نظمه في ديوان سماه نسمة السحر نشره سنة 1303 هـ.

نموذج من نثره

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية في مصر على عهده وهي التي ألقاها على مسرح الأوبرا في حفلة وداعه:

تقفون والملك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار!

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين في دار التمثيل الكبرى (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في الكائنات، ويبرمون وينقضون، ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون.

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع. وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذي كان آخر الخطباء في الحفلة كلاماً وأشدهم إيلاماً وكثرهم آلاما.

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول:

" ما في وقُوفِكَ ساعةً من باسِ "

مثلها في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل، ومجد زائل، وأصدق ما ضرب له الأمثال: " لكل مقام مقال ".

ومنها: أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائيا من اللورد لم ير الراءون ولم يرو الراوون مثله في مقام وداع كهذا المقام!.

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاً يقدم عليه سواه في الكلام. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه في احتفال كهذا. ودعنا من زعمائه انه يمثل مع الحكومة في موقفه السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول. ودعنا من قول

الكونت دي سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوربيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها، أو هو أراد إنجاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلا من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيون دي تور بصبر نافذ.

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر.

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة الأمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأبدي، ونحو الأمة المصرية بما وصفها له من العقم السرمدي؛ بينما هي ترجو من جنابه أن ينتهز هذه الفرصة السائحة ليأسوا الجراح التي جرحها ويضمد الكلوم التي فتحها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات، وجامعتها كشكولا بين الجامعات. وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف، وبينما كان كل هذا إذا ببركان " البيروقراطية " التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات.

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام، ويجاذب داعي الخصام، فجال في خاطره أنه مفارق قصراً تجري من تحته الأنهار، وملكا خضع له فيه الليل والنهار، وتارك خصوماً قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه، أو يتوهم هم أنه حالهم فأغضبوه.

وقف اللورد وله نفسان: نفس نزاعة إلى حب البقاء، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء ؟.

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم، فسر وساء، وترخص وتشدد، وعدد وندد، ووعد وتوعد، وأرغى وأزيد، وحذر وأنذر، وحكم وقدر.

ربما أخرج الحزين جوى الحزن إلـــى عيـــر لائـــق بالســـداد
مثلمـــا فاتـــت الصـــلاة ســـليمان فـــأنحى علـــى رقـــاب الجيـــاد [1]

(1) نشرت بالمؤيد في 7 مايو من سنة 1907 عدد 5175.

إبراهيم المويلحي

(1262 – 1313 هـ)

نشأته وحياته

ولد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة، فتدرب منذ إيفاعه على شئون التجارة وتمرس في فنونها، إلا أن طبعه القلق اللجوج، ونفسه المتوثبة الطموح، لم يطاوعاه على الرضا بالربح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات) فما ارتد إليه منه عير صفقة المغبون. فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت عليه نفحة من جود إسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف. ولكنه اختلف هو ورئيسه اختلافاً لم ينته إلا باستقالته. فقلده الخديوي عملا آخر فناله فيه ما ناله في التجارة والقضاء. وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع الدستور الأول فكان المويلحي ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائماً عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشتراها لنفسه. ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم موليير وصاحب العيون اليواقظ على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديوي إسماعيل خشي شرها فألغاها. فلما كانت سنة 1296هـ وخرج الخديوي مخلوعاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل في طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في خلالها وهو في إيطاليا جريدتي " الاتحاد " " والأنباء " فلم تمتعا بالحياة غير قليل. ثم رحل إلى الآستانة سنة 1304 فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المابين) ورؤساء الحكومة. ثم ارتد إلى مصر وقد خيط الشيب في رأسه، ونالت الأيام من جسمه، فأنشأ (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهام النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة. فقضت حاجة في نفوس الأدباء، ونهجت لهم الطريق السوي في

الإنشاء، ووطأت له هو أكناف الرؤساء والكبراء. واستمر على إصدارها حتى طويت صحيفة حياته.

أسلوبه

كانت الكتابة في عهد المويلحي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة، وتكابد أعراض الوهن، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن سلطان البديع، ولا أن يبرأ من تكلف الحلية الظاهرة. إلا أن تصرفه في الأمور، وتقلبه في البلاد، واختلاطه بألوان الناس، واتصاله برجالات البلاد، ومغامراته في السياسة، وتمرسه في الصحافة، فتقت قريحته، وذلك معانيه، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عنان البلاغة فصرفها حيث شاء ولاسيما في الرسائل، فقد تفنن في جميع ضرريها وأحسن في سائر مناحيها. والمويلحي على ما به من ضيق المضطرب في المعاني، وضعف السليقة في الابتكار، أشبه بالبارودي في الشعر: جدد ما درس من أساليب الكتابة؛ وبين ما طمس من معالم البيان، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة.

آثاره

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من الصحف كنزهة الأفكار والاتحاد والأنباء ومصابح الشرق، أو فيما أعان عليه منها كضياء الخافقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا. وله غير ذلك كتاب " الفرج بعد الشدة " في وزارة رياض باشا، وكتاب " ما هنالك " وصف فيه حال الآستانة ورجال المابين قبل الدستور العثماني.

حفني ناصف

(1272 – 1337 هـ)

نشأته وحياته

ولد محمد حفني ناصف ابن الشيخ إسماعيل ناصف عام 1272 للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحج يتيماً فقيراً، فكفله خاله وجدته لأبيه. ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن. ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فمكث فيه ثلاث عشرة سنة؛ ثم سلك نفسه في الداخلين (دار العلوم) فثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية. ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشرك طلبتها في دروسهم. فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتب سر للنائب العمومي. ثم عين قاضياً سنة 1892م في المحاكم الأهلية. وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية. وفي غضون ذلك انتدب لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت في كتاب خاص. ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفني بك، فأزهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة. وقضى هذه الفترة القصيرة في التنقيب والتنقيح حتى شارف الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين. ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة 1919م ودفن في مقبرة الشافعي.

أخلاقه

كان رحمه الله فكه الحديث، مليح النادرة،حاضر البديهة، سريع الجواب، كثير الدعابة، رضي الخلق، مشاركاً في كل علم وفن، جارياً مع القديم والحديث.

نثره وشعره

حفني بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة. أحياها بأبحاثه ومؤلفاته، وقواها بقصائده ومقالاته. وهو ضليع في فنون اللغة، خبير بقواعد اللسان، بصير بأسرار الكلام ونقده. وأسلوبه في الرسائل يجري على منهاج المتأخرين من كتاب العصر العباسي في الكلف بالسجع والقصد إلى البديع. وله أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف الصناعة فيسيل رقة وسلاسة. في شعره فنمط من الأسلوب النثري والمنظوم، تكثر فيه الملح والمحسنات اللفظية يظهر الضعف في تراكيبه أحياناً، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع.

مؤلفاته

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة العربية كانت تدرس في المدارس المصرية، ككتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذي أقيم في فينا 1886م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر، وكتاب (حياة اللغة العربية) وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية، وكتاب القطار السريع في علم البديع، ورسالة في البحث والمناظرة، وأخرى في المنطق، وكتاب الأمثال العامية، وبديع اللغة العامية. وأكثر كتبه غير مطبوع.

نموذج من شعره

قال يخاطب أحد الرؤساء:

أحييت آمالي وكنت أمتها ... من طول ما لاقيت من إخواني

أدلي بإخلاصي لهم وأذود عن ... أعراضهم بجواري ولساني

محضتهم ودي فلما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسياني

حسبي من الدنيا صديق ثابت ... فرد فكنه ولا احتياج لثان

وقال أيضاً:

أتقضي معي إن حان حَيْني تجاربي وما نلتها إلا بطول عناء؟
ويحزنُني ألا أرى لي حيلةً لإعطائها من يستحقُ عطائي
إذا ورث المِثرون أبناءهم غنىً وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء

ومن نثره رسالة عزى بها الشيخ علي يوسف في ولده:

خفف الله لوعتك، وأراقا دمعتك، وجنبك الجزع، ووقاك الهلع، وألهمك الصبر، وأجزل لك الأجر، ورزقك من البنين، في مستقبل السنين، ما تقربه عيناك، ويقوى به عناك. وأنت والحمد لله في قوة، وبقية من الفتوة، تمكنك من الأبوة، لخير البنوة. على أن لك في عالم السياسة، وضروب الكياسة، في هذه البلاد، ألوانا من الأولاد، وآثاراً كبرى، تضمن لك الذكرى، وتجعل لك على مدى السنين، لسان صدق في الآخرين. والسلام عليك ورحمة الله.

باحثة البادية

(1883 – 1918م)

نشأتها وحياتها

هي السيدة الفاضلة ملك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفني بك ناصف. ولدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سن 1886 وتلقت مبادئ العلوم في مدارس أولية مختلفة. ثم دخلت المدرسة السنية في أكتوبر من سنة 1893م ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة 1900م وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة. ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية. وفي سنة 1907م بني بها عبد الستار الباسل وهو سري من سراة قبيلة الرماح باليوم، فتركت التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرة حتى توفيت بالحمى الإسبانية في أكتوبر من سنة 1918م وهي في زهرة العمر ونضرة الشبيبة.

مكانتها في العلم والأدب

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة في الإصلاح. تعهدها والدها الكريم منذ طفولتها فغذاها بأدبه، ونفث فيها من روحه، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة من عمرها. ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها الرجال. عنيت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لا تزال رجعية. ألقت في هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وكتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بإمضاء " باحثة البادية " فصار لقباً غلب عليها.

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه " النسائيات " ونشرت منه جزأه الأول. ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولا سمته " حقوق النساء " أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه.

نموذج من كلامها

من قولها في كتاب النسائيات:

ما أنقى الهواء، وأعذب الماء، وأصفى السماء في القرى! وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن! القرى جميلة لأنها على الفطرة. أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء. أين دوي الكهرباء، من خرير الماء، والدخان المتعاقد فوق المداخن، من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رءوس النخل الباسقات؟ وأين وحل الشارع وعثيرها من أرض كسيت ببساط النبات؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول. بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء!.

ومن قصائدها في حال المرأة قصيدة مطلعها:

أعملت أفلامي وحينا منطقي ... في النصح والمأمول لم يتحقق

أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم ... صوتاً يهز صداه عطف المشرق؟

أيسركم أن تستمر بناتكم ... رهن الأسار ورهن جهل مطبق؟

هل تطلبون من الفتاة سفورها؟ ... حسن، ولكن أين بينكم التقى؟

لا تتقي الفتيات كشف وجوهها ... لكن فساد الطبع منكم تتقي

تخشى الفتاة حبائلا منصوبة ... غشيتموها في الكلام برونق

لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتسابقوا للأليق

ودعوا النساء وشأنهن فإنما ... يدري الخلاص من الشقاوة من شقي

ليس السفور مع العفاف بضائر ... وبدونه فرط التحجب لا يقي

مصطفى لطفي المنفلوطي

(1876 – 1924م)

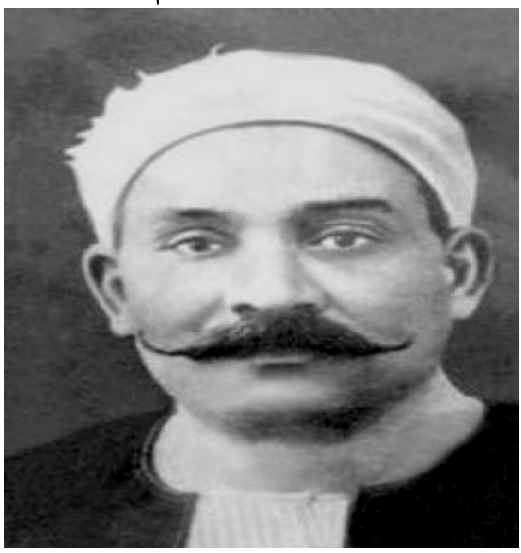

نشأته وحياته

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة 1293هـ - 1876م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان على الكره من روع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب. فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشئ الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تفوقه لدى صاحب (المؤيد)، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديوي عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن

مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده. وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغي في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربياً لها. ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره.

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزى، لا تلمح في قوله ولا فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة. كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحس في سكون، هبوب اللسان في تحفظ. وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة: ثم هو ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة. وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلا من أدب القاضي الفاضل، أو أثراً ماثلا لفن ابن خلدون؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأه كنشأته في جيل كجيله. وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب، فاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف

الألم ويمثل العيوب في اسلوب ظلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران: ضعف الأداة وضيق الثقافة. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها. لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالا مباشراً بعلوم الغرب. لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة. وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر: كلاهما أحيا وجدد، ونهج وعبد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال.

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص. وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة. ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم. وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية: تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار، وبول وفرجيني (الفضيلة) لبرناردي سان بيير، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدوة.

نموذج من نثره

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس، فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله، وسألته ماله، فشكا إلى ألم الجوع، ففتأته عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى صديق لي من أرباب الثراء والنغمة فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به، فشكا إلى البطنة، فقالت " ياللعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً. لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفئ غلته؛

ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً فضم إلى مائدته ما اختلسته من صحفة الفقير، فعاقبه الله على قسوته بالبطنة؛ حتى لا يهنئ للظالم ظلمه، ولا يطيب له عيشه، وهكذا يصدق المثل القائل. " بطنة الغني انتقام لجوع الفقير ".

ما ضنت من السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما عنه واحتجنهما دونه، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسر الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ما أظلم الأقوياء من الإنسان، وما أقسى قلوبهم! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقراً؛ ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام، قديده وشوائه، حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فتات تلك المائدة، ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها؛ بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب، وصناديقه من الجواهر، وغرفه من الأثاث والرياش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه، ويبغض إليه حياته؛ وكأنه يقول في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: " أنا سعيد لأني غني. وأنت شقي لأنك فقير ".

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسنا، لأني لا أعتمد فضلا صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان. وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلا إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان. ورجل يحسن إلى نفسه، ولا يحسن إلى غيره، وهذا الشره الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه.

أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلا. وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلبي حينما سئل ما يصنع بمصاحبه وكان يدور به في بياض النهار فقال: " أفتش عن إنسان ".

عبد العزيز شاويش

(المتوفى سنة 1929م)

نشأته وحياته

ولد عبد العزيز بن خليل شاويش في الإسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل بالتجارة. ثم تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أحد الكتاتيب، ثم طلب علوم الدين والعربية في جامع الشيخ بالإسكندرية فشدا شيئاً منها أهله إلى أن يفد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر. وكان أذكياء الأزهريين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول في (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والمحاماة، وأنجع الوسائل إلى التجدد والرفاهية، فدخلها الشيخ عبد العزيز، واشتهر بين لداته بالجد والاستقامة، والغيرة على الدين والكرامة. ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية ردحاً من الدهر، ثم اختير في بعثة إلى انجلترا ليتخصص في التربية والآداب، فتعلم اللغة الإنجليزية واطلع منها على الآداب الأوربية فازداد علمه واكتمل بيانه وتنوعت ثقافته. ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف. وعاد ثانية إلى انجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثراً في تقديم منافسة عليه فاستقال من العمل في وزارة المعارف سنة 1908 وانضوى إلى لواء الحزب الوطني. ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى كامل باشا رئيساً لتحرير (اللواء). ثم جرت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسته في السياسة، ومتاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر من جرائم الرأي. فلما خلوا سبيله رحل إلى أوربا. وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسي مكاره الغربة من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضعضع الآمال خائر القوى، فتجهمت له بعض الوجوه، وانقبضت عنه أكثر الأيدي، وحاول أن

يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح، فانصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الأولى في وزارة المعارف؛ فاضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين. ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة 1929.

أخلاقه

كان رحمه الله جميل السمت حسن الشارة متواضع النفس خلو الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندي الراحة، جزئياً في الدفاع عن دينه، شجاعاً في الزياد عن وطنه، صريحاً في الإبانة عن رأيه. سابقاً إلى كريم المساعي، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة. وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أوذي في كرامته أو وطنيته أو عقيدته.

أسلوبه

كان أسلوبه خطابياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق. وكان يجري فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام علي في نهج البلاغة. وهو من الكتاب القلائل الذين أطلعوا على أدب الفرنجة وتأثروا بها. وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث. كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة.

مؤلفاته

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤدبين) في التربية العلمية والعملية؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) في الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه. وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آي الذكر الحكيم تفسيراً ملائماً لروح العصر.

نموذج من نثره

قال في فاتحة مقالاته في جريدة اللواء يوم استقال من وزارة المعارف:

" بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتلبيس. في أسواقها النافقة تشتري النفوس، بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس. وبيمنك اللهم استقبل فاتحة الحياة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة. أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج، بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه. أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر، منبرياً في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر. موقناُ بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين، من الظفر والفتح المبين ".

ومن مقاله بعنوان " مدرسو اللغة العربية المصريون في بلاد الإنجليز ":

" نصح إلى المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد، أن اقتدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكا بديني. رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي. أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه. رأيتهم يحبون الصراحة، ولا يخشون معتبة، ولا يتهيبون متعبة، مادام الحق لهم فأخذت أحاكيهم في تلك الفضائل التي نصح بها عميدهم بنظارة المعارف العمومية! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإضافة والإسهاب في مدح من نجح في تقليدهم ومحاكاتهم في فضائلهم، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين! ".

الأدباء

ناصيف اليازجي

(1800 – 1871م)

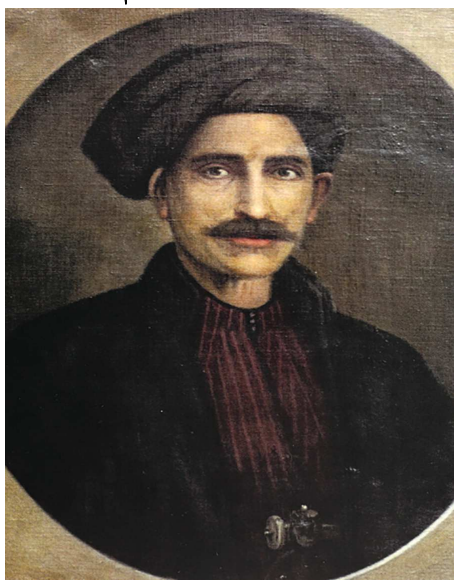

نشأته وحياته

ولد ناصيف بن عبد الله اليازجي بكفر شيما من قرى لبنان ونشأ في بيت فضل وعلم وأدب، وبدأ يتعلم الهجاء على أحد القساوسة، ومبادئ الطب على أبيه، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلبها ويحصلها، والكتب يومئذ نادرة وتجارتها بائرة ومطلبها بعيد. فكان إذا وقع في يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه، حتى غزرت مادته وكملت آلته، وبلغ حظه من المنثور والمنظوم، فاستكتبه الأمير بشير الشهابي وهو في أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتي عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة 1840، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت وانقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء حتى منى في أعقاب عمره بفالج نصفي عطل شطره الأيسر. ثم فجع في بكر أولاده الشيخ حبيب، فضعضعت هذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعش بعده إلا يسيراً.

نثره وشعره

ترسم الشيخ خطوات الحريري وانتهج نهجه، فأولع بالبديع، وأفتن في الصناعة، وكلف بالغريب. وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية. وأعجب بالمتنبي في الشعر كما أعجب بالحريري في النثر، ولكن تقليده لأبي الطيب كان أضعف، وتخلفه عن مجاراته كان أظهر. فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر الحريري وأضرابه، وبخاصة تلك القصائد التي كلف فيها التاريخ الشعري، فقد غالى في ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً! أو ينظم القصيدة فيلتزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدة في تهنئة إبراهيم باشا بفتح عكا، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهملة كقوله:

حـــــول در حـــــل وَرد هـــــل لـــــه للحـــــر وِرد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال أبياتها نفحات أبي الطيب فيجزل لفظها ويقوي أسلوبها وتفيض بالمعاني المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة.

علمه ومؤلفاته

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة، واطلاع واسع في الأدب، وإتقان عجيب لعلوم اللسان. فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين التي قلد بها الحريري. وله (الجمانة) (وجوف الفرا) وهما أرجوزتان أولاهما في الصرف وأخراهما في النحر، و (فصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف (وعقد الجمان) في علم البيان، (ونقطة الدائرة) في العروض والقوافي، (وقطب الصناعة) في المنطق. ثم دواوين شعره وهي (نفحة الريحان) و (فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء) و (ثالث القمرين). وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسي ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية.

نموذج من كلامه

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية:

بنـاء العلـى بـين القنـا والبـوارق ... على صهوات الخيل تحت البوارق

ولله ســـر فـــي العبـــاد وإنمـــا ... قليـل محـل السـر بـين الخلائـق

بقلـب هـذا الـدهر أحوالنـا كمـا ... تقلـب فينـا لاحقـاً إثـر سـابق

ولـولا اختيـار الدولـة ابـن سـريرها ... لمـا اعتمدتـه فـي المعـاني الـدقائق

كـريم تـولى الأمـر يصـلح أمـره ... كفتـــق تولتـــه أنامـــل راتـــق

أقـام السـرايا ينفـر المـوج خيلهـا ... بكـل لـواء فـوق بنـان خـافق

يحدث أهـل الغـرب في كـل ليلـة ... بمـا فعلـت غاراتـه فـي المشـارق

فيعجـب مـن أفعالـه كـل عاقـل ... ويثنـي علـى أفضـاله كـل نـاطق

تضـيق بحـار الشـعر عنـه وتسـتحي ... يبحـر لهـا فـي بحـر كفيـة غـارق

أحمد فارس الشدياق

(1804 – 1887م)

نشأته وحياته

ولد هذا الكاتب اللغوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادئ القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وفيراً ظهر أثره بعد في خطبه وكتبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفيه ترك مذهب والديه واعتقد المذهب الإنجيلي فاضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً في محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكان ورعايتهم، فقضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكان سنة 1834 إلى مالطة ليصحح ما تخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحرر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم انصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فاتصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: " ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها " ثم اعتقد الإسلام وهو في تونس وسمي نفسه أحمد. وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي، وفضله يظهر وذكره يذيع حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الآستانة وأنشأ جريدة " الجوائب " وأودع فيها من فنون

النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد، وتناقلته برد الشرق والغرب. وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة. فسعى غليه المجد والثراء، وخطب وده الأمراء والعلماء، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة. ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره، فمازالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة 1884 على أثر الحوادث السودانية. ثم ورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخدد وجهه الكبر، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته، وأكرموا مثواه وإقامته، ثم ارتد إلى الآستانة فوافته بها منيته.

نثره وشعره

كان الشدياق متضلعاً من فنون الأدب، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة. حافظاً لمفردات اللسان، بصيراً بمذاهب البيان، يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متساوق المعاني، موفور الازدواج، شديد الإطناب، كثير الاستطراد، ظاهر المبالغة. أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره. فهو في النثر مجدد وفي النظم مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد.

مؤلفاته

له غير الفصول التي نشرها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة طلاعه وطول باعه. وأشهرها:

كتاب (سر الليال في القلب والإبدال) وهو كتاب لغوي تحليلي يشتمل عرى سرد الفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة. وقد طبع بالآستانة سنة 1284هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق). والفارياق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه. أنشأ هذا الكتاب الضخم أثناء سياحته في أوربا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابده في صدر حياته، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه. ثم أورد الألفاظ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والحلي والجواهر، وذلك

أجل ما في الكتاب. وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله، ولا يليق بفضله.

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التي أخذها على قاموس الفيروزابادي. ثم (كشف المخبأ عن أوربا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوربية.. و (الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة أراضيها وأهاليها وحاضرها وماضيها.

نموذج من كلامه

من الناس من يبالغ في مدح وطنه، ويحن إليه حنينه إلى سكنه، فيصف مروجه ورياضه، وبروجه وحياضه، ووهاده وجباله، وتلاعه وتلاله، وربوعه وديار، ونباته وأشجاره، وبقوله وثماره، ودوحه وأطياره، وطيب هوائه، ولذة مائه، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسنا، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمنا، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره، وأن كل بلد مستمد من خيره، ومحتاج إلى ميره، ثم يزفر زفير الهائم الحيران، ويصرخ صراخ الولهان: ألا إن حب الوطن من الإيمان. لقد جبت السهول والحزون، وركبت الذلول والأمون، وطوفت في الأمصار، وجولت في الأقطار؛ وضربت في مناكب الأرض مستقصياً، واختبرت أحوال من ليها مستفتيا؛ فلم أجد عيشا هنيئاً إلا في بلادي. هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء، فقال فيها فلان أبياتاً، وقال فيها فلان قصيدة غراء، واسمع ما قيل في جداولها ونواعيرها، وبلابلها وعصافيرها، وخمائلها وأزاهيرها، وصروحها وقصورها، ومصانعها ودورها، وظبائها ومراتعها، وزكائها ومواقعها، وفي أريج آفاقها، وبهيج أشفاقها، ونضرة حدائقها، وبهجة شقائها، فإذا قلت له: كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عوناً وخدنا! قال: ويلي إنه شر جار، وهو على البلاد عار وشنار. فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تؤالفه وتصافيه! قال ويلي إنه شر من أخيه. فكيف أهل الحارة طراً؟ قال: ويلي إنهم كانوا كلهم على شراً، ولم أجد منهم إلا ضراً. فكيف أهل المدن والأمصار؟ قال: ويلي إنهم أولو غبن وغش وتغرير وإخفار، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار. هذه حال سكان

البلاد، الحاضر منهم والباد، فلا تكثرن من السؤال، ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال. فإن شئت قلت له. ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن، وأهلها على هذه المساوئ الشوائن؟ قال: إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين، فحرثوا وزرعوها، وعمروها وأمرعوها، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاتهم فاسدة، لكن بقين تلك المحاسن فيها فائدة. ولكن ما معنى الزمان؟ وهو لم يكن صالحا قط منذ خلق الإنسان، والتواريخ على ذلك شاهدة، ونصوصها عليه متساندة متعاضدة. ثم فكيف فسدت الناس وأنت بقيت من بينهم صالحاً، ترى كل من سواك طالحاً، ولو كنت من الصالحين، لما رأيت في غيرك خلقا يشين. فإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالاً.

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

كذلك قال الشاعر الحكيم: فما أنت في طعنك عل جنسك إلا مليم. وإن امرأ يحسب جميع أهل بلاده دونه، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه.

بطرس البستاني

(1816 – 1883م)

نشأته وحياته

ولد العالم الضليع واللغوي المحقق بطرس ابن بولس الماروني بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم في أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وتفقه في الفلسفة واللاهوت والفقه، وتبحر في التاريخ والجغرافية والحساب؛ ووقع في نفسه أن يخدم الكنيسة، ولكن بدا له فأحجم وانصرف إلى التعليم. ثم وفد إلى بيروت واتصل بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الإنجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة، ثم دخل في نحلتهم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة. ثم أنشأ في سنة 1863 مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق. ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف، ففرغ في عام 1719 من تأليف معجمه المحيط. وفي سنة 1880 أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم ؛ ثم عززها بعد بصحيفة الجنة وجريدة الجنينة. وشرع بعد ذلك في

وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يعجز الفرد وينوء بالجماعة في قبيل كقبيلة وجيل كجيله. ولكن حذقه لأشهر اللفات واعتصامه بالصبر والثبات، ذللا له العقاب وسهلا عليه الصعاب، فأصدر منها ستة مجلدات. ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل في السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هداه.

علمه وفضله

نبغ البستاني في عصر فشت فيه الجهالة وغشي الناس الظلام فحمل المصباح وأنار الطريق، ونصب نفسه للهداية والدعاية فألف الكتب، وأصدر الصحف، وأنشأ المدارس، وملأ حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال، وفي ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتية وإرادة قوية. فمن تلك الآثار الخالدة: محيط المحيط، وهو معجم لغوي على النمط الحديث استوعب فيه قاموس الفيروزابادي وصحاح الجوهري فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة. وقد استخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط. ومنها دائرة المعارف، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضي نحبه في التاسع . فأتمه بنوه الباقون بمعونة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الإلياذة، ثم وقف عملهم عند ذلك. فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بني عمومته الجزأين العاشر والحادي عشر، ثم حال نقص الأداة دون التمام.

وللبستاني غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب في علم الحساب ومفتاح المصباح في الصرف والنحو، وعد عديد من المقالات والرسائل.

إبراهيم اليازجي

(1847 – 1906 هـ)

نشأته وحياته

ولد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام 1847م في بيت معمور بالفضل، مشهور بالأدب، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية. ثم عكف على كتب اللغة والأدب، فأتقن علوم اللسان، وعرف مطارح الإساءة والإحسان، وحفظ كثيراً من جيد المنثور والمنظوم. ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية. حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا غليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى في هذا العمل تسع سنين كان في أثنائها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد، وينشر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت. ثم هاجر إلى القاهرة في عام 1894م، وأنشأ مجلة البيان سنة 1897 مع الدكتور بشارة زلزل. ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة 1906.

أدبه وعلمه

كان الشيخ إبراهيم عليماً بأسرار العربية، عارفاً بمفرداتها وفرائدها، حافظاً لنوادرها وشوادرها، واقفاً على صحيحها وفاسدها. فكان يتعقب الكتاب والشعراء في مجلتيه البيان والضياء، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق، لتحرير لفظه، أو تصحيح رواية، أو تنقيح نص: وبفضل هذا التعقب شعر الأدباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجمة. واستفاد المعلمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب، فأشاعوا تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ. ورأى اليازجي محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلا فاختار لهم طائفة من التعابير البليغة المأثورة في كتاب سماه (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) كما جمع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد) والشيخ إبراهيم بعد ذلك طويل الباع في الصناعتين، له شعر جزل محكم، ونثر مطبوع رائق.

نموذج من كلامه

كتب يعزي بعض أصدقائه:

من علم أن القضاء واقع، وأن الأعمار رهائن المصارع، فلم يصحب دهره غلى غرة، ولم يفتر من الأقدار بفترة؛ لم تكبر عليه الرزيئة إذا اغتالت، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت، فإن الدهر رقدة وهبة، وإن الليالي كمنة ووثبة. ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها، وعرف موارد الحياة ومصادرها، وإنما الموت طور من أطوار الوجود، وآخر أعمال الحياة في الوجود. ولا أزيدك علما بالكون وشرائعه؛ والكائن وطبائعه، إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله، وحل بساحته القضاء فأذهله. وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المتاح، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح. وما أخلقني بأن أقول: إن رزءك هذا قد زادني شجنا على أشجاني، ونكأ ما تماثل من فرحة أحزاني. ولكني قد صيرني الدهر إلى حال، لا تعمل

فيها حال، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال، فكأنما إياي عني أبو الطيب حيث قال:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

حمزة فتح اللّه

(1849 – 1918م)

نشأته وحياته

ولد الأستاذ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله بالإسكندرية عام 1849 ونشا بها نشأة الأوساط، فحفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثنائها جريدة الرائد التونسي. ثم عاد إلى الإسكندرية واتصل بالخديوي توفيق، فأوحى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية زيادا عن عرشه وتأييداً لسياسته، فما حال عليها الحول.

وفي سنة 1886 مثل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استوكهلم سنة 1889. ثم رأى أن يزاول التعليم بعد الصحافة فعين سنة 1888 مدرساً بمدرسة الألسن فدار العلوم. ثم انتقل إلى التفتيش فمكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة 1912م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة 1918م وقد كف بصره.

أخلاقه وعلمه

كان رحمه الله سليم الصدر، كريم الخلق، غيوراُ على اللغة، ولوعاً بالأدب مغري بالبحث، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه، فرفعوا شأن اللغة، وأحيوا موات الأدب. ألف كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم. ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح كتب الدراسة بالمعارف.

علاج النظم على طريقة المتقدمين، والنثر على طريقة المتأخرين، فكان وسطاً في الحالين، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين:

نموذج من كلامه

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها في مؤتمر المستشرقين يقول في مطلعها:

حمد السرى يا أخي العود والناب أنساك وعثاء إغباب وإخباب

ومنها في الحكم:

ومن يرد نيل مجد وهو في دعة فقد بغى من صفاة در أحلاب

والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والنبع في غاب

والسيف مثل العصا إن كان مغتمداً وزامر الحي لا يحظى بإطراب

وأزهد الناس في علم وصاحبه أدنى الحبة من أهل وأصحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكري معتذراً:

مولاي: أما الشوق إل رؤيتك فشديد، وسل فؤادك عن صديق حميم، وود صميم، وخلة لا يزيدها تعاقب المَلَوَين، وتألق النَّيرين، إلا ونوقاً في العُرا، وإحكاماً في البنا، ونماء في الغراس، وتشييداً في الدعائم. ولا يظنن سيدي أن عدم ازديادي ساحته الشريفة، واجتلائي طلعته المنيفة، لتقاعس أو تقصير، فإن لي في ذلك معذرة اقتضت التأخير. والسد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقة، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة. وبعد فرجائي من مقامكم السامي ألا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي، فكم مِنةٍ طوقتمونيها، ولكم فيها فلل البداءة وعلى دوام الشكران والسلام.

الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة. فلما دعا داعي الثورة العرابية ظهرت الخطابة السياسة على ألسنة زعمائها، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحاق واللقاني. ثم مرن عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجامع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة ولكن الخطابة لم تجل عنها اعقاب العلة المزمنة

إلا في عهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة 1908م، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده. وأقوى معين في إيقاظ بلاده. ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شبابنا ولاسيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة. ولعل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيباً حافل القريحة، قوى العارضة، جهوري الصوت، قبل المغفور له سعد باشا زغلول. وإنا لنتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقياً سريعاً؛ فإن الحرية السياسية، والمنافسات الحزبية، والمناقشات البرلمانية، من أبلغ العوامل أثراً في رقي الخطابة. ولولاها ما كان ديمُستين في اليونان، ولا شيشرون في الرومان، ولا على في العرب.

عبد اللّه نديم

(المتوفى سنة 1896م)

نشأته وحياته

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم في الإسكندرية، ونشأ لها نشأة الأوساط فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في الكتاب وهو يومئذ المدرسة الأولى لأبناء الشعب. ولما أيفع دخل معهد الإسكندرية في جامع الشيخ فأدرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان. وطغى ميله الأدبي على ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والنثر. ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله ذلك عن العكوف على الدرس. وأعجله طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فنصرف عنه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة)، ثم فصل عن هذا العمل فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارته ولم يسلم رأس ماله، فعاد إلى الإسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية. وأمدته الحكومة بالمكان والمال على ألا تكون مقصورة على المسلمين؛ ثم جعلها

الخديوي توفيق تحت رعايته. وكانت هذه الجمعية من المحاريب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلا ليسمعوا الخطب في مختلف الشئون من أمثال عبد الله نديم، وأحمد سمير، وأديب إسحاق، وإبراهيم اللقاني.

ثم ألف السيد عبد الله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة، كان مغزاها الأسى على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها. ثم أخذت آراء الأفغاني تهفو بالنفوس وتعصف بالرءوس، فشُغِلَ النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيت والتبكيت) وهي أسبوعية كانت تلبي الجد ثوب الهزل. ثم استبدل بها (الطائف) فكانت بوقا من أبواق الثورة العرابية، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية. وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر. ولما خبت نارها وقبض مشعلوها اختفى عبد الله نديم عشر سنين قضاها متنكراً في كل زي، متنقلا في كل بلد، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديوي على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء. فأقام في فلسطين حقبة من الزمن بعدها إلى القاهرة مطلق السراح، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجيباً أقض مضاجع الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد. فرحل إلى الآستانة ونفق عند السلطان فعين مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه الله إليه.

أخلاقه ومواهبه

كان السيد عبد الله نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان، فصيح العبارة، حاضر البديهة، سريع الناكتة، شديد التهكم، عاضه الله من قلة العلم وضيق الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وسماحة القريحة في الكتابة وغزارة البحر في الخطابة. ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فاتصلت أسبابه برجال الحكم، وطال اختلاطه بقادة الشعب، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض. وتخلل طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسبر أهوائهم. وكان لذلك كله أثر بالغ في علمه بمخبآت الضمائر، ومقتضيات الأحوال، وأخذه بأعنة الكلام يصرفه في أي معنى شاء، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغاني: " ما رأيت طول حياتي

مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب ".

نموذج من كلامه

قال من رسالة له عمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن:

لا حول ولا قوة إلا بالله، اشتبه المراقب باللاه، واستبدال الحلو بالمر، وقدم الرقيق على الحر، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف، وأظهر كل لئيم كبره، إن في ذلك لعبرة. سمعاً سمعاً، فالوشاة إن سعوا لا يعلقوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر. عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. وأنت يا عزيز العليا، ووحيد الدنيا، قد بينت لك فعلهم، فيما رحمة من الله لنت لهم. ولكنهم طمعوا في عميم طولك، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك.

مصطفى كامل

(1874 – 1908 م)

نشأته وحياته

ولد زعيم النهضة المصرية وموقظ الروح الوطنية، مصطفى كامل بالقاهرة سنة 1874م في بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصح الدين، ثم تلقى دروسه الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنه لم يتجاوز التاسعة عشرة. وكان في أثناء الطلب قد اشتهر بين الطلاب والكتاب بقوته في الكتابة وقدرته على الخطابة، فنشر كثيراً من المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد، وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون لمته ويترسمون خطاه. ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة، وإنما اتجه إلى خدمة وطنه من طريق السياسة والصحافة، فسافر إلى أوربا مراراً يدعو إلى مصر بالكتابة في صحفها والخطابة في محافلها.

وداخل رجال السياسة في فرنسا وانجلترا يستمد منهم التوجيه والعون، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جوليت آدم الفرنسية التي يقوله لها في بعض رسائله: " إنني لا أزال صغيراً، ولكن لي أملا كبيراً. أريد أن أوقظ في مصر الشيخة مصر الفتاة. هم يقولون إن وطني لا وجود له ن وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه ".

ثم انشأ (اللواء) في ثلاث نسخ: بالعربية والإنجليزية والفرنسية، فدافع بها عن بلاده، وجاهد في سبيل حريتها حق جهاده، حتى أدرك، هو في طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل. وكان في مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم، فعاش للمبدأ والفكرة، ومات للقدوة والعبرة. ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الناحل ألف (الحزب الوطني) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة؛ ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياما فاخترمته رضي الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره.

مصطفى كامل الخطيب

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة، رائق المنطق. ندى الصوت، عذب النبرة، أنيق اللهجة، لا يتلكأ ولا يلحن ولا يتلعثم. وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب، قوي الروح، صادق الفكرة، نبيل الغرض، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة، استطاع أن يحيى الموات، ويجمع الشتات، وينعش خمود الشعب بالآمال المطمعة، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة.

نموذج من خطبه

قال من خطبة له ألقاها بالإسكندرية في 22 أكتوبر من سنة 1901:

بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي! لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أتت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر! يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهور في حبها! وهل

يستطيع مصري ألا يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها، فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون! أنظروها وتأملوها، وطوفوها، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً، وأسمى شأناً، وأجمل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟.

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبها الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أغزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها، وسلم أزمتها للأجنبي:

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً!.

سعد زغلول

(المتوفى ستة 1927م)

نشأته وحياته

ولد سعد زغلول في (إبيانة) من أعمال مديرية الغربية وتلقى في كتاب القرية مبادئ الثقافة العامة وأولها حفظ القرآن الكريم، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة والمنطق ثم صارت له في الجدل والمناظرة شهرة. واتصل السيد جمال الدين الأفغاني حين هبط مصر فلزمه وأخذ عنه وتأثر به وكان سعد بفطرته مجبولا على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل ومحاربة النقص. عين بعد أن ترك الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وينتقد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين. ثم أصغى لقضية الحق في الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن في (الضبطية) سبعة أشهر. ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة، ولم يكن يشترك

في مزاولتها حينئذ إلا أداء امتحان في المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر.

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف. ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق. وفي سنة 1906م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس في اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس في اللغة العربية، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة. ثم عين ناظراً (للحقانية) فجد في إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلاءم العصر وتسد الحاجة. ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها في (الجمعية التشريعية) فكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتجه الأفئدة.

ولما أعلنت الهدنة في الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (فرساي) تحركت مصر للمطالبة بحقها في تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول، فنفته السلطة العسكرية الإنجليزية في نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة، فثار الشعب المصري ثورته المعروفة سنة 1919. وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلى بينهم وبين مؤتمر الصلح في باريس.

وفي سنة 1920م دعته الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأي في المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد. ولكن المفاوضة لم تسفر عن تحقيق الأماني القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة مقابلة الفاتح الظافر. واستأنف الجهاد على الخطة التي رسمها فأقض مضاجع الإنجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة، ثم نقل هو جبل طارق. وأطلق سراحهم جميعاً بعد ذلك، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حينا ثم ارتد إلى مصر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح 28 فبراير من سنة 1922 بتحفظاته الأربعة، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد واصدر الدستور في سنة

1923. وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى رياسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده.

منزلته في الخطابة

لم ير التاريخ المصري، بل الشرقي، قبل سعد خطيبا، بلبل اللسان، رفيع الصوت، حافل البديهة، دامغ الحجة، أنيق اللهجة رائع البيان، حسن السمت، يزاوج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويراوح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقى بجمال الإيقاع.

ذلك لأن سعداً كان رجل جلاد وجدل. تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم، وتنفس به في ميادين الحق. فتكلمت عبقريته الموهوبة بالمعرفة، وتثقفت بالتجربة، وتقوت بالمرانة، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب [1] بالكلام أربع ساعات متواليات، لا يتلكأ، ولا يتلجلج، ولا يتكثر باللغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع. وكان مع ذلك يخطب كما يكتب، ويكتب كما يخطب، متوحيا في الأمرين براعة التفكير، وبلاغة الأداء، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير، وصحة الأقيسة، وقوة الأدلة.

نموذج من نثره

وجه رحمه الله هذا النداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر سنة 1921م:

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب، وأعجز وصف كل كاتب وخطيب، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة، وباعث من شعورهم الحي، ترتعش أعصابهم حماسة، وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة، للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيهم، عنوان مبادئهم. ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا به من مظاهر الفرح الباهر

---

(1) فلان يهضب بالشعر أو بالخطب: يسح بها سحاً.

– تلك الصفات التي تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها. وشعرت من قبلات الترحيب التي غمرونا بها بحرارة قلب يخفق في جسم شعب عظيم. وقد اشترك الأموات والأحياء في أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبة نحو الوطن العزيز، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير في الطريق الذي سنه الحق القويم. وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لما يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم، والتزام هذا الطريق المستقيم.

إننا نشكر البلاد جميعها، قربها وبعيدها، على حلة الثقة التي زينتنا بها، ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة – ويشاركنا في هذا القسم العظيم أصحابنا المخلصون في جهادهم – إننا لا ندخر شيئاً من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية، ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه.

إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا، ونشد أزرنا باتحادهم المتين، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة، ونتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية التي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التي وضعتها الأمة، وعاهدنا على احترامها، مع الخطة التي رسمتها وتعهدنا بمتابعتها. ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة، وعاملة على تحقيق غايتها السامية.

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله، ويقبل على شأنه، فالتلميذ إلى مدرسته، والفلاح إلى مصنعه. والتاجر إلى متجره، والكاتب إلى مكتبه، والمرأة إلى إدارتها بيتها. وعلى الكل من غني وفقير أن يباشر عمله، مراقباً أعمالنا، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى، وأن يعتقد أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً، ويضم إلى قواه قوة.

إلى العمل جميعاً، لنرفع منار الوطن، ونعلي كلمته، ولتحيا مصر!